على الغلاف

وديع الصافي يلتحـ

ولو!

بيار أبي صعب

حين يصلك الخبر المحزن، فيقطع سهرة الجمعة بالآهات، تستفيق «الفراقيّات» التي يحفل بها التراث الغنائي اللبناني، وقد حملها المطرب الراحل بصوته الرخيم إلى مصاف الكلاسيكيّة. هل نحن بحاجة لأن نتذكّر كم أن وديع الصافي يسكن ذاكرتنا، بالبصمات النورانيّة التي تركها على الذوق العام واللاوعي الجماعي؟ كلّ منّا يردد أغنياته كأنّها من ملكياته الحميمة. «ولو؟ هيك بتطلعوا منّا؟». هذه المرّة صحّت الشائعة للأسف، ورحل مطرب المطربين في مطلع تسعينيّاته، بعد معاناة مضنية مع المرض. «آه يا زمان يا زمان يا زمان، لو تغلط مرّة وتعطيني الأمان». وديع (فرنسيس) الصافي، ابن رقيب الدرك، الذي شهد ولادته الثانية مراهقاً في «إذاعة الشرق الأدنى» (الاذاعة الوطنيّة اللبنانيّة مطلع الأربعينيات) على يد ميشال خيّاط وسليم الحلو، بات منذ عقود من معالم الهويّة اللبنانيّة. لكن نزول ستارة الفصل الأخير على حياته الحافلة ليلة الأمس، يكرّس تلك الحقيقة، ويعطيها بعدها الرسمي والنهائي.

مات وديع الصافي ليأخذ مكانه نهائيّاً في سجل الخالدين. علماً أن هذا العملاق لم يحظَ بالاهتمام الرسمي في بلده إلا متأخّراً. أما الدعم والرعاية في اللحظات الصعبة فجاءاه من خارج لبنان. ولا غروَ في ذلك، فوديع ليس حكراً على لبنان. ومدرسته الغنائيّة «اللبنانيّة» ليست من الشوفينيّة أو الانعزاليّة في شيء. أبعد من اللون الجبلي الذي برع فيه، أو الغناء التقليدي اللبناني الذي يقترن به في التصنيفات السائدة، خلّد وديع الصافي التراث المشرقي العربي، وأحياه وجدّده. فالغناء الشعبي اللبناني، بشتّى أنماطه وقوالبه (من الميجانا وأبو الزلف، إلى المعنّى والعتابا، مروراً بالشروقي والقرّادي...)، له امتداداته وتفرّعاته في فلسطين وسوريا والأردن والعراق. ابن نيحا الشوف حمل الفولكلور إلى قلب الأغنية الحديثة، فأعطاها مذاقها الخاص، برخامة صوته، ورهافة شعره، وقوالبه الموسيقيّة الفريدة. تلك هي «مدرسة وديع الصافي»، في صلب الأغنية العربيّة المعاصرة التي بلغت معه واحدة من ذرواتها النادرة.

اليوم نلتفت وراءنا من على رصيف المشيّعين، ونستعيد محطّات على الطريق الطويل. وديع الصافي تاريخ حافل من الحقب والأسماء، أسعد السبعلي ومارون كرم، إيليا أبو ماضي وسعيد عقل، فيلمون وهبي والرحابنة وزكي ناصيف، فريد الأطرش ومحمد عبد الوهاب. «عظيمة يا مصر» وسوريا وفلسطين. الأرز وبيت الدين. «مهرجانات فرقة الأنوار» مطلع الستينيات، وقد صدر بعض أرشيفه على أسطوانة رقميّة في التسعينيات. «بعلبك» مع فيروز، و«موسم العزّ» مع صباح، وحواريّاته مع نجاح سلام في أفلام محمد سلمان... حين وضع له محمد عبد الوهاب لحن «عندك بحرية يا ريس»، علّق موسيقار الأجيال قائلاً: «ألحّن له إيه؟ أيّ حاجة يقولها حلوة!». مغنية الأوبرا المصريّة والناقدة الراحلة رتيبة الحفني، كتبت عن صاحب الحنجرة الذهبيّة: «لا نغالي إن قلنا بأن صوت وديع الصافي أقوى أصوات الرجال في العالم العربي بلا استثناء، مداه ديوانان ونصف ديوان تقريباً، أي 18 مقاماً أو نغمة. ويهبط صوته، بسهولة متناهية، من أقصى الحدة إلى أقصى الغلظ. هذا الصوت ضخم جذل، وفي الوقت نفسه رقيق رشيق...».

وديع تنحّى اليوم، فاسحاً الطريق أمام الورثة والفنانين الشباب. هؤلاء يجدون فيه أكثر من مطرب فريد، إنّه أحد رموز النهضة الموسيقيّة العربيّة.

مسيرة فريدة تختصر هوية الأغنية اللبنانية

باسم الحكيم

حكاية فن وعشق قاربت الـ 75 عاما من العطاء،

عن عمر ناهز 92 عاماً، رحل وديع الصافي (وديع فرنسيس، 1921ـ 2013) بعدما أصيب بوعكة عند السابعة من ليل أمس، حين كان في منزل نجله طوني، فنقل إلى مستشفى Bellevue في المنصوريّة حيث فارق الحياة. برحيله حكاية من عمر لبنان انطوت. حكاية فن وعشق قاربت الـ 75 عاماً من العطاء، بدأها في «راديو الشرق» في سن السابعة عشرة (1938)، وتوّجها بنجاحات كبيرة في المهرجانات، بين بعلبك وجبيل أواخر الخمسينيّات، ومطلع الستينيات. ابن بلدة نيحا الشوفيّة، منها كانت انطلاقته الأولى. هناك، لفت انتباه أساتذته في مدرسة الضيعة، ثم في مدرسة الآباء المخلصين في بلدة جون. ووصلت أصداء شهرته إلى أنحاء العالم، وحمل أربع جنسيات هي المصريّة، والفرنسية، والبرازيلية، إضافة إلى جنسيته اللبنانية.

وقع خبر رحيله كالصاعقة على محبيه. فور إعلان الخبر، امتلأت صفحات التواصل الاجتماعي بعبارات التعزية والمواساة. المطربة الكبيرة سعاد هاشم نعت «وديع الخسارة الكبيرة. حين أسمع صوته، أتذكر لبنان بصخره وزهره وشموخ أرزه». تتذكر لقاءهما في «مهرجانات الأنوار» (أنشأها الصحافي الراحل سعيد فريحة) في الستينيات. يومها تحدى أحدهما الآخر بمواويل العتابا وأبو الزلف، وغنيا معاً «ودي يا بحر ودي/ طولنا بغيبتنا/ ودي سلامي لبيت جدي/ وللتوتة اللي بدارتنا». وأشارت هاشم إلى الصولات والجولات التي قاما بها معاً في العواصم العربيّة، منها الكويت ومصر، مشيرة إلى أنّ الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر كان يزور السفارة اللبنانيّة في مصر، ليستمتع بصوت وديع وسعاد. لفت صاحب «لبنان يا قطعة سما» الأنظار منذ كان صغيراً. خاله نمر العجيل كان أول من اكتشف موهبته، فعلّمه عزف العود، وأهداه آلة عود، احتفظ بها حتى آخر أيامه. عاش طفولة متواضعة، ودرس في «مدرسة دير المخلص»، وما لبث أن توقف عن متابعة تحصيله العلمي، بعدما سرقته الموسيقى والفن من علمه، فوجد في الغناء متعة وفرصة لمساعدة والده على إعالة العائلة.

وكان أكبر أجر تقاضاه يومها ثماني ليرات ذهبيّة من الست نظيرة جنبلاط (والدة كمال جنبلاط)، وكان يومها لا يتجاوز الحادية عشرة.

شاءت الظروف أن يحمل له شقيقه توفيق، قصاصة ورق عن إعلان لمسابقة غنائيّة تنظمها «إذاعة لبنان» الرسمية المعروفة يومذاك بـ«إذاعة الشرق الأدنى». شارك وديع في المسابقة ونال الجائزة الأولى في الغناء من بين 40 متبارياً. وكانت اللجنة الفاحصة مؤلّفة من ميشال خياط، سليم الحلو، ألبير ديب ومحيي الدين سلام. وانتسب بعدها إلى الإذاعة، التي كانت بمثابة معهد فني، ساعدته على إنضاج موهبته. وهناك أطلق عليه اسم وديع الصافي بدلاً من وديع فرنسيس، كما أثبت سريعاً تميّزه، وكانت أولى أغنياته الخاصة «يا مرسال النغم».

يعد الشاعر أسعد السبعلي صاحب بصمة مهمة في مشوار التعاون مع الصافي. كانت البداية مع أغنية «طل الصباح وتكتك العصفور» عام 1940. خلال مشواره، تعاون مع مجموعة كبيرة من الشعراء. وكان مارون كرم أكثر من جمعه تعاون به امتدّ حتى السنوات الأخيرة من حياة كرم، الذي رحل قبل ثلاث سنوات. قدم إليه مئات الأغاني، أشهرها «بيت صامد بالجنوب»، «لا انت راضي»، «ندم» (دق باب البيت عالسكيت)، «مرسال الهوى». وفي نهاية الخمسينيات، انطلق العمل بين عدد من الموسيقيين من خلال «مهرجانات بعلبك»، التي جمعت وديع الصافي، وفيلمون وهبي، والأخوين رحباني، وزكي ناصيف، ووليد غلمية، وعفيف رضوان، وتوفيق الباشا، وسامي الصيداوي وسواهم. أما لقاؤه الأول بعبد الوهاب، فكان عام 1944، يوم سافر إلى مصر. مع بداية الحرب اللبنانية، غادر وديع إلى مصر عام 1976، ثمّ إلى بريطانيا، ليستقرّ عام 1978 في باريس. وكان سفره اعتراضاً على الحرب الدائرة في لبنان، كما عاش فترة في البرازيل.

عشق الشام في حياته، ووحدها في مماته

وسام كنعان

ليت أحدهم يملك آلةً للزمن ليعيدنا إلى الخمسينيات، وتحديداً أيام الوحدة بين سوريا ومصر، لنتابع بمتعة مشهد الزعيم الراحل جمال عبد الناصر يستقل طائرته من القاهرة إلى دمشق، كي يحضر إحدى حفلات وديع الصافي. للراحل حكاية طويلة مع عاصمة الياسمين قد تكون بدايتها سنة 1952، عندما أطلق أغنية لحنها بنفسه هي «عاللومة اللومة» من إذاعة دمشق. قلب الراحل توقف عن النبض، وهو لطالما خفق عشقاً للشام وهوائها. مرة، قال «أعتذر من الشعب اللبناني، فالشعب السوري يحبُني حتى القداسة». وبالفعل، كان لأغنيات الصافي وقع خاص في نفوس السوريين، كلما اشتدت المصائب على عاصمة الأمويين، سمعت صوته يصدح من نوافذ البيوت «يا ابني بلادك قلبك عطيها وغير فكرك ما بيغنيها». هي الكلمات التي غرّدت بها المغنية السورية فرح يوسف فور انتشار خبر رحيل الصافي أمس، وكلما «راح الغوالي» في زمن الموت المجاني، شاركهم العملاق بصوته وهو يصدح بهذه الأغنية.

عرف المسؤولون السوريون قيمة صاحب «يا بيت صامد بالجنوب»، فاهتم القصر الجمهوري به، وأُفردت له مكانة خاصة وحجزت له دعوات دائمة إلى مهرجانات وحفلات رسمية، وكان يلبي الدعوة سريعاً. حتى عندما مرض ذات مرة، أصر الرئيس السوري بشار الأسد على معالجته على نفقة الدولة في مستشفيات دمشق سنة 2008، فأثار قبول الصافي حنق بعض السياسيين اللبنانيين، وحاولوا إعادته إلى بيروت، لكنّ عائلته رفضت. عرف الصافي كيف يحفظ الوفاء، فغنى «سوريا وطن السلام». وعلى العهد، بقي الصافي وفياً حتى بعد اندلاع الأحداث، فلم ينافق ولم يركب الموجة كما فعل كثيرون، بل اختار موقفاً واضحاً وغنى للرئيس الأسد شخصياً «إلاك لا أمل».

خبر رحيله أمس حوّل مواقع التواصل الاجتماعي إلى جدران علّق عليها النجوم السوريون حنينهم إلى أغنياته، وحزنهم على فراقه، وصوراً نادرة له، ومقاطع خاصة من أغنياته، إضافة إلى صورة «سلطان الطرب» جورج وسوف وهو يقبّل يده. كتب أيمن زيدان على فايسبوك: «هي الذكريات والدروب التي نزحت عني برحيلك. كم سأشتاق إلى التجلي بعد غيابك أيها الكبير»، فيما اكتفت أصالة نصري بصورة كبيرة جمعتها به، ودعت له بالرحمة. وهنا، انتبه أحد الصحافيين إلى أنّ «وديع الصافي برحيلك وحّدت السوريين هذا المساء». أما شكران مرتجى، فكتبت «رحل عصفور النهرين وليلى تبكي بعدما راحو الغوالي ولبنان سيبقى قطعة سما وعلى رمش عيونها دموع الفراق».